

الرئيسية ثقافة

ميشيل سورا: زيارة واجبة

رشا الأطرش | الخميس 2017/02/02

مشاركة عبر

 حجم الخط 



"احتاج ميشيل إلى وقت طويل قبل أن يتخلص من فكرة أن كل ما لحق به كان مجرد سوء تفاهم. غالباً ما كان يقول: هذا مستحيل، أنا أعرفهم وأعيش بينهم، مستحيل أن يكون هؤلاء لبنانيين. كان يعرف جيداً أنهم لبنانيون من لهجتهم، لا شك في ذلك. لكن تفريطهم في لبنانيتهم، كما كان يقول، هو أمر لا يمكن تخيّله من وجهة نظره. وحين اكتشف حقيقة خاطفيه، آلمه ذلك كثيراً. فوَعيُه عن لبنان والشرق انقلب رأساً على عقب، واهتزت افكاره وتحليلاته. لم يعد ميشيل كما هو لأنه فَقَد كل أوهامه".

هكذا تحدث صديق ميشيل سورا، ورفيق زنزانته اللبنانية طوال ثمانية أشهر، جان بول كوفمان، في فيلم عمر أميرالاي "في يوم عنف عادي، صديقي ميشيل سورا.." (1996). الشريط المدجج بالأسى والشجن والحب، بجروح الفقدان والحرب والظلم والهمجية، يعود اليوم إلى الذاكرة، موقظاً مشاعر إضافية: غضب، حب أكبر، عجز أمام عبثية تلاحقنا كلعنة، رغبة مُلحّة في تأمل الماضي بعين الحاضر، توجّس من هذه الرغبة في الوقت نفسه، ودهشة مفزعة إزاء التكرار الذي يَسِم تاريخنا بعنفٍ يبدو أكبر من قدرتنا على الاحتمال، ومع ذلك نحمله ونحتمله لأنه قَدَر، أو كأنه كذلك.

أن نرى كتاب "سورية: الدولة المتوحشة" بالعربية على رف مكتبة في بيروت، وغلافه مذيّل باسم الباحث والكاتب الفرنسي ميشيل سورا (1947-1986)، فهذا انتصار، ولو تأخر أكثر من 30 عاماً.

سورا، الشاب المستشرق المستعرب، المتحمّس للقضية الفلسطينية حدّ الانخراط فيها، ومُفكك الديناميات الاجتماعية والسياسية في المجتمعين اللبناني والسوري، حيث عاش وتزوج السورية ماري معمارباشي، وأنجب، وعقد صداقات كثيرة، في أحلك أيام البلدين: ذروة الحرب الأهلية اللبنانية، وقاع القمع الذي ثبّت به النظام الأسدي حكمه لسوريا. سورا، عالم الاجتماع الفرنسي المولود في تونس، والذي شعر بنفسه مشرقياً وعربياً أكثر من أي "هوية" أخرى – إن كانت لمثل هذا الرجل هوية واحدة تعرّفه وهو بهيّ التعدد والألوان. سورا، اختطفته في بيروت "منظمة الجهاد الإسلامي" التي "تطوّرت" لاحقاً إلى "حزب الله". رمته في زنزانة في مكان على طريق المطار، ومَرِض، وظل سجانوه يجيبون آهاته بسخرية: "بسيطة، بسيطة.."، مانعين عنه العناية أو العلاج. ثم أعلنت "المنظمة" في آذار 1986 تصفية "الباحث الجاسوس



الكتاب الذي بين أيدينا اليوم، مُترجِماً بعض بحوث سورا وأوراقه عن سوريا ولبنان، إلى العربية، للمرة الأولى على الإطلاق، يقول عنا أكثر بكثير مما يقول للقارئ بالعربية عن الكاتب الذي قُتل بسبب بحوثه هذه. وتصادف اليوم الذكرى الأليمة الـ25 لمجزرة حماه.

يكفي التوقف عند عناوين بعض الفصول: "الدولة المتوحشة: سورية بين سنتي 1979 و1982"، "إرهاب الدولة أم إرهاب ضد الدولة: الحالة السورية"، المجتمع السوري ضد دولته"، "الفِرق والطوائف والمجتمع في سورية"، "المعطيات السورية عن الأصولية الإسلامية". القول بأن شيئاً لم يتغير، وأن كل شيء تغيّر، في آن واحد، هو المفارقة الأكثر تعبيراً. ليس لما تشي به تلك العناوين المدهشة في جرأتها ودقة توثيقها التاريخي والسياسي والاجتماعي، وارتباط ذلك بالمَقتلة السورية الراهنة فحسب. بل لما نعلمه من أن الكتاب كان سيصدر عن إحدى دور النشر اللبنانية، قبل أن يوقف القيمون على المخطوطات الفرنسية، عملية النشر، بسبب الرقابة التي راحت الدار تمارسها على عنوان الكتاب وبعض مضامينه، خوفاً من النظام السوري. ثم أصدرت "الشبكة العربية للأبحاث والنشر"، "الدولة المتوحشة"، ليُباع الآن في مكتبات بيروت حرّاً. وهذا للقول بأن الخوف ما زال، والقاتل أيضاً، ولا محاسبة ترتجى. وجدار الخوف، في اللحظة عينها،



العناوين العريضة والأسماء التي انتصرت بالحديد والنار والبروباغندا وشتى أنواع الرشاوى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تقاضاها السوريون برضاهم أو مرغمين، ليبقى حكم التاريخ المنخور بالأكاذيب. لطالما قلنا جميعاً إن الثورة السورية عرّفتنا على سورية، أسماء مدنها والأحياء ومناطق الإثنيات، كما لم نعرفها من قبل. لكن سورا كان بدأ التعارف هذا قبلنا بعقود ثلاثة. والمؤكد أن كثيرين سيتذكرون المعنى الأُمّ لإبادة حلب الأخيرة، والتي لم تكن الأولى من نوعها، وستنتعش حقيقة أن ثأراً قديماً بين حلب وبين النظام لم يمت، وما زالت تفاصيله مبهمة إلا لأبناء المدينة وريفها. سيتذكر قرّاء، أصل خروج التظاهرات من الجوامع في العام 2011. طبعاً، بسبب حياة سياسية ميتة، ألغت مساحات التجمّع والتداول والنقاش وتنظيم الآراء والخلافات، قبل الاحتجاجات، وطلباً للتمويه، واستباقاً للقمع والمنع. لكن هناك المزيد: ذاكرة لم تستطع السلطة محوها، وإن محت شخوصها وأدبياتها. ينقل سورا عن معارضين "علمانيين" للبعث الأسدي، التقاهم، كيف يستعصي عليهم إنكار الإنجاز الذي حققه "الإخوان المسلمون" (1979-1982) بكسر "جدار الخوف واللغة الجوفاء التي ما فتئت تتبجح بانتصارات كاذبة"، مع تحفظ أولئك المعارضين على أسلوب "الإخوان"، أي الإرهاب وطائفية النضال. وإذ يفصّل الكاتب، بواقعية ميدانية وبأدوات نظرية عديدة، دوافع الحراك الإخواني آنذاك، فإنه يرسم أيضاً صورة بانورامية لحراك النقابات (1978) ضد النظام، ولو أنها لم تنجح في تحويل الانتفاضة آنذاك عن "الأخوَنة". كيف؟ العنف الحاكم من قبل ومن بعد. النظام يحفظ دروسه جيداً ويراكم الخبرات. أما السوريون، فقد اقتُطعت من كتبهم صفحات كثيرة، ولم يبق سوى الغبن والتخبط.. والإسلام الجهادي. وما زال كثيرون يتساءلون: كيف آلت الثورة الشبابية السلمية في 2011 إلى هذا في 2017؟ هل هو عنف النظام ودفعه إلى عسكرة التحرك؟ أم أن هناك أسباباً مذهبية وثقافية واجتماعية أخرى؟

استطاع سورا تعرية الخطاب السلطوي السوري لرؤيته بوضوح، سابقاً، بأشواط، الكثير من نظرائه العرب والأجانب، لا سيما اليساريين النضاليين منهم، أو القوميين، أو الأمميين. مثلاً، يفند، بالتفاصيل السردية والوقائع، كيف أن ديبلوماسية الإرهاب (محاولة اغتيال رئيس الوزراء الأردني مضر بدران – 1981) ساهمت في عزلة عربية وإقليمية للنظام السوري، "وما عادت الدولة البعثية تستطيع الاعتماد على التراث المصري الطويل في الحكومة المركزية، أو على نظام تقليدي من التبعية كالنموذج الهاشمي، فقررت أن تبرر وجودها بادعائها الدفاع عن شرف الأمة العربية بأكملها في مواجهة الصهيونية والامبريالية". وهكذا، أصبحت الوصيّ الأسوأ على القضية الفلسطينية.



تجاوز تكوينه المعرفي الغربي، والموضة البحثية التي كانت سائدة في زمنه، لا سيما تفكيك الخطاب والإيديولوجيات، ورفد النظري بالمعاش الإنساني والاستقصاء الميداني.

في فيلم أميرالاي: يضغط كوفمان على زر مسجّل، فيخرج صوت سورا، متحدثاً، على ما نفهم، خلال اجتماع عمل: "الباحثون الغربيون لا يريدون رؤية الواقع إلا عبر النموذج الغربي لمجتمع الطبقات الاجتماعية، ظنّاً منهم أنهم بهذه الطريقة يحلون مشكلة الاندماج الوطني، بحسب مقولة جورج كورببير حول دور اليومي في الأداء الاجتماعي. أنتم تتحدثون عن اليومي اللبناني، من دون القول بأن هذا اليومي هو لبناني بامتياز، وأن أمراء الحرب فيه هم مسيحيون ومسلمون".

فلنتذكر أنها أواخر السبعينات – أوائل الثمانينات من القرن الماضي، في سوريا ولبنان. الحرب منفلتة والقبضة الأسدية في عزها. السلاح كالرزّ. الخطف والاعتقال كشربة الماء (وهو ما أدركه سورا لاحقاً وبأبشع الأشكال). التنقل عسير. الحدود والطرق عشوائية. الاتصالات معجزة، ناهيك عن إيجاد الناس والمراجع وإجراء المقابلات. ومع ذلك، وثّق سورا جمع حافظ الأسد للطائفة العلوية "تحت غطاء جمعية غامضة هي جمعية علي المرتضى". وتحدث عن "تربيف الدولة" وحقد الريف على المدينة، واستعصاء دمشق على العلويين الصاعدين في الحكم، والذين حملوا ضغينة قديمة على مدينة حماة حيث كانوا فلاحين مضطهدين ومستغلين طوال قرون من قبل كبار الملّاك المدينيين السنّة. ثم طريقة "علوَنة" الأجهزة الأمنية والعسكرية السورية. وفي موازاة ذلك، سرد كيف ولماذا يرى النظام السوري كـ"دولة عنف"، ولا يعتبره نظاماً شمولياً، إذ لم تمتلك المنظومة الأسدية كامل الأدوات الشمولية. لكن حافظ الأسد أجاد توظيف "إرهاب الدولة"، وقد تعمّق سورا في دراسة هذا المصطلح الأخير في زمن لم يكن فيه هذا المفهوم دارجاً، كما هو الآن، ولا كان مشبعاً بالتحليل المستقى من حالات وأحداث، لكن هذا ما فعله الباحث الشاب.

هكذا، يُبحر القارئ مع سورا في رحلة غنية، تجمع صحافة استقصائية نظيفة، إلى تنظير متأثر بماركسية لم تأسره أو تحدّه.

"الدولة المتوحشة" بين أيدينا اليوم، بالعربية. القراءة واجبة، والأهم أنها ممتعة ومفيدة، وأحياناً



حجم الخط

مشاركة عبر

التعليقات

التعليقات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

التعليقات: 0 فرز حسب الأقدم

إضافة تعليق...

المكون الإضافي للتعليقات من فيسبوك

الكاتب

رشا الأطرش

مديرة التحرير

مقالات أخرى للكاتب

طائفة مُحبَطة

السبت 2025/02/01

السياسة تعاود زيارتنا

الجمعة 2025/01/17

الموت السوري كصرخة حياة

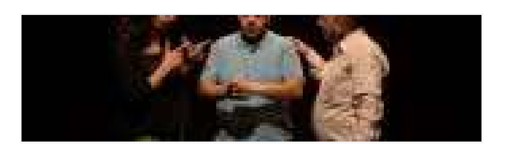


عرض المزيد

الأكثر قراءة



بلال الأرفه لي: جوهرجي المخطوطات المنسيّة



"اللي شبكنا يخلصنا"... أو الشفاء بالآخرين



التمرد والعنف في الفقه الإسلامي

تابعنا عبر مواقع التواصل الإجتماعي


جريدة إلكترونية مستقلة


المدن
جريدة إلكترونية مستقلة


جريدة إلكترونية مستقلة

